

مسألة الفضاء الطاعي للثقافة الرقمية حوار مع الفيلسوف "ريجيس ديبري" ترجمة عبد الباقي هزرشي

أستاذ بقسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله-

تاريخ النشر: 30/12/2021

تاريخ القبول: 23/09/2021

تاريخ الإرسال: 01/09/2021

ملخص

ليست عملية الانتقال من المطبوع إلى الرقمي مجرد تحوّل هيّن لوسائط الاستعمال؛ ولكنها تدشين لمرحلة جديدة من مراحل الاعتقاد والتفكير.. ذلك ما يفسره الفيلسوف ريجيس ديبري Régis Debray مدير مجلة Médium وصاحب المساهمات الفكرية العديدة..

Abstract

The shift from the printed to the digital is not merely a trivial alteration of the media usage, rather, it represents a launching of a new phase of conviction and thinking... that is what the French philosopher Régis Debray, the director of Medium Magazine and the author of several intellectual contributions, explains.

ما الذي حدا بك إلى الاهتمام بالميديولوجيا (الإعلامية) التي تنصب جهودها على تتبع أنماط نقل الثقافة بما فيها الكتابة التي تعتبر إحدى ركانزها؟

كان ذلك خلال تتبع لنشاطات تأثير فئه المثقفين. فلقد وجدت نفسي مهموما بمساءلة الأساس التقني الذي يبني عليها دور هذه الفئه ما الذي يجعل نظريه تديع وتنتشر بين الناس؟

ما الذي يجعل مثلا من مخطط من مخطط ما بيان للأهمية العمالية؟ يقول ماركس في هذا السياق "عندما تستحوذ فكره معينة على الجماهير تغدو قوة مادية". ولكن على أي نحو؟ هذا ما لا يجيبنا عنه ماركس. ويكمن لب المشكلة في التكنولوجيا، لا يمكننا البتة أن نفكر في الأيديولوجيا دون التكنولوجيا. ولقد أدركت أنه من الممكن رد فكرة الاشتراكية إلى فكرة المطبعة، بإمكانك إذن أن تؤرخ للحركة الاشتراكية من خلال تاريخ المهن المتعلقة بصناعه الكتاب.

كيف ذلك؟

كان كل مؤسسي الأحزاب الاشتراكية في القرن التاسع عشر عمالا يشتغلون في صناعه الكتاب، فقد كان بيارلورو، الذي ابتكر كلمه اشتراكية، ناشرا، أما بابلو إيغليسياس فقد كان عاملا مطبعيا. وهكذا كان العمال المطبعيين هم الذين يؤلفون ما نسميه الطليعة الثورية، في حين إن لنين نفسه اشغل بالصحافة. أما غراتشوف بابوف فقد كان يعمل بالأرشييف. ويمكننا مضاعفه الأمثلة في هذا الصدد. يعتبر المكتوب وسيلة من وسال تحليل العالم ووساطة من وسائط الذاكرة. ويمكن القول من جهة أخرى أن الثوار هم في الحقيقة أناس رجعيون بالنظر إلى اهتمامهم بالذاكرة، وحينهم إلى العودة إلى عالم مفقود. إن كل هذا التحول يحدث من خلال المكتوب، المكتبة... وهكذا فإن النواة الكامنة وراء الاشتراكية هي نواة مكونة من مكثبيين ومطبعيين وصحفيين. هذا بالمعنى الأول للكلمة. ما هي البلشفية؟ إنها باختصار "الايسكرار" (الشرارة وهي الصحيفة الماركسية لنين). ويمكن القول إن مخيال الأممية الثالثة برمته يرتبط بالبيان الصحفي، والعريضة والمنشور من حيث ارتباطه بالورق والرصاص.

لم تكن هذه الأسئلة تهّم جميع المثقفين، لأنهم كانوا يعتقدون أن الأمور تسير على نحو سليم بحكم صدقيتها يقول لنين "إن الماركسية قوية لأنها صادقة". بالإمكان افتراض لاوعي تقني نظير اللاوعي جدا التحليلي، ويتعذر علينا تحمل هذا اللاوعي التقني أو قبوله، لأن الأمر يشعنا بالازدراء كلما تمت المقابلة بين فكرنا وبين الأدوات التي يستخدمها، وهو أمر يقلق ذاتنا السيّدة ويزعجها. إن امتلاك الوعي بالقلب التقني الذي يحكمنا أمر عسير للغاية؛ فكما أننا لا نضيء وصلات الكهرباء التي تمنحنا النور، فكذا لا نفكر عندما نتصفح كتابا أننا نتعامل مع ورق، وعندما نقرأ نصا ما فإننا لا نستحضر فيه حروف الطباعة ولا نتساءل عن نسق التدوين.

يزدري المثقفون هذه الأسئلة ولكنه تاريخ النشر، وتاريخ التلقي. وحتى المؤرخون أنفسهم غالبا ما يتأففون من التقنية في حقيقتها الأب الفقير للعلوم الإنسانية على الرغم من وجود مؤرخين ذائعين للكتاب.

كيف يؤثر ظهور الثقافة الرقمية -معالجة النصوص بالحاسوب والنشر عن طريق الأنترنت- في علاقتنا بالمكتوب خاصة بالثقافة عامة؟

بالنسبة إلي تعتبر النقطة الأكثر جوهرية هي تلك المتعلقة بزحزحة الكتاب، هذا الجسم المتوازي السطوح ذي الغلاف والذي يحتوي زوايا الطي ويتشكل من بداية ونهاية والذي يتيح لنا التعرف على نسق فكري ما وسلطة وثقافة. وأعتقد أنه قد حدثت قطعة حقيقية في هذا الشأن.

كان نظام الكتاب يقوم على فكرة الكليّة، الكتاب هو مجموعة مكونة وهي مجموعة مغلقة تتعارض في تصورها مع انفتاح النص الإلكتروني. وبالإضافة إلى هذا، فإن للكتاب زمانية

تحكمه تتعلق بالسرد والتاريخ ولها بداية ونهاية، ويتمتع الكتاب بثباته تجعله متناقضا مع حركية المكتوب الإلكتروني.

ويبدو أن هذه المفاهيم الثلاثة المذكورة أي الكليّة، السرد والثبات آيلة لتلاشي في زمن الثقافة الرقمية. وكلما كان الرقمي أكثر نزوعا نحو العالمية، كلما كان أقل قابلية للاحتواء الكلي. وكلما كان الاتصال البيئي مفرطا، كلما كان التنظيم الممكن للخطاب ضئيلا. وقد بدأت أفكار الضبط النسقي والتنظيم والاحتواء والتتالي تخسر شيئا فشيئا وتراجع لحساب مفهوم التطابق. والأمر يرجع هنا إلى انتصار مفهومي النسخ واللصق، وهما مؤشران على نهاية عالم نلج على أنقاضه إلى نظام جديد من الاعتقاد والتفكير. ومن الواضح هنا أن الأمر يتعلق بتسهيل العمل العلمي، ولكنه يدفع بنا إلى تلاشي الأشكال الكبرى للذهن البشري. كل ذلك لحساب عمل الصحفيين؛ ويستبدل الصحفيون المعرفة بالإعلام وتنظيم الذاكرة بالولوج المباشر إلى الأجزاء!

وما دامت المعرفة تنتشّط باستمرار فلسنا بحاجة إلى حراس الذاكرة. وقد كان أفلاطون محقا في توجسه: كلما ذاعت الكتابة كلما قل تبجيلنا للكبار. ما الجدوى من شيوخ الذاكرة كلما وجدت في حاسوبي الشخصي ذاكرة تفوق ذاكرة جدي؟ وعلاوة على هذا، فإن الثقافة الرقمية تزيل مادية الكتابة؛ للكتاب تموقع يضبطه وهو فضاء بإمكاننا ارتياده عن طريق البحر؛ إنه فضاء ترسمه حدود معينة هي الظهر والغلاف. كما أن الكتابة المطبوعة وحتى المخطوطة ذاتها هي عبارة عن حث (labour) أو عمل، في حين إن التسمية الاصطلاحية للصفحة مشتق من اسم الثور boeuf. والواقع أن هذا الانتزاع المادي للكتابة هو انتزاع لقدسيته. وأعتقد أنه فيما لو افترضنا أن الثقافة الرقمية قد بدأت منذ 2000 سنة، فإننا لا نمتلك كتابات مقدسة مثبتة ويعاد إنتاجها بشكل دائم كما توحى به الكتابات التوحيدية! قد يبدو الأمر طريفا شيئا ما، ولكنه يشير إلى انعدام المادية الثابتة والتحرير المقدس الممكن.

أشرح لنا هذا، هل يمكن القول إن الكتابة في العصر الرقمي قد فقدت سلطتها التي كانت تتمتع بها في عصر المخطوط والمطبوع؟

يعتبر النص بمثابة وحدة ذات معنى ما، وحتى لو افترضنا أن هناك مؤلفا جماعيا لنص ما، فإن النص يظل وحدة. إنه يشير إلى "هوميروس" مثلا، وتفترض هذه الإحالة قصدا معنويا يحكم النص، وتعاليا لمؤلف يتخارج مع منطوقه. أما الأمر فيما يتعلق بالإنترنت، فإنه بإمكان أي واحد أن يتدخل في نص ما. وهكذا فإن فكرة الأصالة والوحدة تفقد هنا كل قيمة.

إن الإنترنت هو نموذج الترابط البيئي، النموذج البلوري الفاقد للمركز، ومن هذه الزاوية لا يوجد متن محفوظ ولا هوية قابلة للتحديد من أعلى إلى أسفل. وفي العصر الرقمي الذي نحيا فيه، لا وجود لفكرة كتاب جامع يقول كل شيء عن كل شيء. هذه الفكرة التي تبطن التوراة

والقرآن. كما أن الاعتقاد بأن للتاريخ بداية ونهاية، أي أن التاريخ ينغلق على ذاته بغية الاستحواذ النهائي على المعنى وتطويقه، هو اعتقاد محدود للغاية.

تحدثتم عن العلاقة بين الاشتراكية والمطبعة، هل ترون أن هناك نموذجا سياسيا يطابق الكتاب الرقمية؟

لا أملك جوابا عن هذا السؤال، ولكنني من الناحية التلقائية والمنطقية أقول إن هذا النموذج هو نموذج ديمقراطي لا مركزي مسير ذاتيا، مؤلف من كيانات صغيرة، تعاطفي، إيكولوجي وتحريري. وهكذا كم يبدو العالم جميلا!

إن الأنترنت جيد، ما في ذلك شك، فهو التخويل التحريري لجهاز عسكري، وقطعا يوجد هنا مخيال تحريري يحق بالأنترنت؛ لا وجود لمؤسسات، لا سلطة شاقولية، لا تمثيل.. نحن نبتكر ونخلط وننقطع. لقد انتهى عهد الأوصياء ورجال الدين! هذا الأمر لا يحدث عندما نواجه العالم في حقيقته، ومن المهم بمكان النظر إلى الطريقة التي يلجأ إليها الإسلاميون في الاستفاد من الشبكة الرقمية بوصفها ملجأ وموضعا يضمن التخفي عن الرقابة. لقد فهموا جيدا المنطق الذي يحكم وسائل المعلومات، وهو منطق تحكمه الحادثة والمباغته والإبصار، وأنه إذا ما منحت الآلة ما هي بحاجة إليه فإنها تصبح أداة دعائية. ونحن هنا أمامها حاضرون في كل مكان ولا مكان، حاضرون ولكنه يتعذر الإمساك بنا.

إن الكتابة الرقمية هي أيضا تلك الأشكال التي طرأت على المکتوب البريد الإلكتروني والرسائل الرقمية التي لا علاقة لها بالمراسلات المعهودة. هل هي حقا أشكال جديدة للكتابة؟

إننا نعيش شكلا جديدا من أشكال خلخلة اللسان، وهو شكل يخلق قطعة فعلية، وهي قطعة أنثروبولوجية تبلورت من خلال الكتابة الرقمية ذات الرسائل الإلكترونية (sms) وهي خلخلة ارتبطت بمعالجة اللسان الشفوي وتشكيل قواعده. هل يمكن القول إنها ابتكار لأعراف جديدة أم أنها عودة إلى الشفاهية البدائية؟ من الواضح أن التكنولوجيا الجديدة تنزع إلى العودة إلى الماضي، أي إلى ما هو عتيق بحثا عن الشفاهية الحية.

تهيمن على الاتصال والنقل بواسطة الشبكة الرقمية الإنجليزية، هل هو نزوع لتكريس إنجليزية الاتصال؟

إن قانون (zipf) قانون يخدم اللغة الإنجليزية. فكلما كانت الكلمات قصيرة، كلما شاع استعمالها. أما الكلمات الطويلة فهي آخذة في الاختصار بمقتضى الاستعمال. ينبغي علينا ربح الوقت، فنحن في عصر الدروب المختصرة الموصلة عصر الولوج المباشر. لذا يتوجب علينا الميل إلى الاختصار، ولا شك أن استعمال التعابير الصوتية الشائعة أمر لا يخلو من مزايا. كما

إن اللسان الإنجليزي ذا التركيب المقطعي الأحادي أكثر تبليغا من ألسنتنا ذات الجذور اليونانية أو اللاتينية!

حتى الآن، وفي جميع الحالات فإن الرقمي لا يعوض المطبوع ولكنه يضاف إليه أليس كذلك؟

الحقيقة أنهما يتعايشان. إن ما نسميه في الميديولوجيا بـ"الفضاء الخطي" وهي فترة دشنت بابتكار المطبعة، وتتميز بنقل المعارف والأساطير بواسطة الكتب، وهذا على نحو أساسي. هذه الفترة تتعايش مع ما نسميه بـ"الفضاء الكلي"، وهو فضاء ميزه النقل السريع للمعطيات الرقمية في هذه الفضاءات الوسيطة المتساكنة. نشهد ما يمكن تسميته في الأيديولوجيا بالأثر الراكض لحركة التقدم التكنولوجي؛ وهو الاصطلاح العرفي للدلالة على إعادة تنشيط القديم وتغذيته بالحديث.

إننا نحيا انتعاشة في المكتوب المادي، وهي موضة جديدة لفن الخط، ولتعلقنا بالأرشيف والوثائق القديمة. غير أن هذه العودة العجيبة للمخزون، وهذا النداء الإحيائي المدهش مرتبطان بالأشكال الجديدة للأمنيزيا والتي تتمثل في القراءة عن طريق النقر، واقتطاع المعلومات من تاريخياتها، وهكذا إننا نستشعر الحاجة الأثرية للعودة مجددا إلى المصادر والبحث عن الانتماء.

L'histoire n: 29, octobre 2005